العولمة وإعادة بناء مفهوم الدولة في العالم العربي

الدكتورة بوسيف ليلى

جامعة وهران

تمهيد:

يبحث العرب، منذ نهضتهم (القرن التاسع عشر) عن دور حضاري وثقافي كذلك الذي كان لهم، ذات يوم من أيام مجدهم، والذي ضاع منهم، بل نتيجة لعوامل كثيرة ومتعددة إن مثل هذا الأمل لا يجد مشروعيته في مثل ذلك الماضي العربي المجيد فحسب، بل إنه يجدها كذلك، في الحاضر العربي المتردي، ترديا لا يزيده تسارع حقب التاريخ اليوم، إلا حدة وتعقدا على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والاجتماعية[1].

وأمام مثل هذا الواقع، المتمثل في العولمة والتي تعبر عن رغبة الشمال في السيطرة على الجنوب والغرب على الشرق، وتعتبر أيضا أحد أشكال الهيمنة السياسية بعد انهيار أحد المعسكرين وانفراد المعسكر الآخر بالسيطرة على العالم، وبالتالي فهي تتطلب الدولة الرخوة، وليست الدولة القوية الوطنية المستقلة [2]، فمثلا إسرائيل تعتبر جزء من النظام الاقتصادي الغربي إلا أنها تتمسك بإرادتها المستقلة، تستفيد من العولمة دون أن تكون ضحيتها[3].

وبالتالي نتساءل هل هي نعمة لاستمرار الحياة والشعوب والأمم باختلاف خصوصيتها الثقافية أو نقمة عليها؟ وهل هي تناقض أم تجانس؟ وهل العلاقة بين المجموعة وعناصرها هي علاقة تذويب وابتلاع أو تمايز واجتماع؟

وفي كلمة كيف يمكننا تصور بقاء الأمم بثقافاتها المتنوعة وإثبات الذات أمام تحديات العولمة التي تقدر مرجعيات المستقبل؟

إذا كانت الدولة، خاصة الحديثة ظلت تعرف منذ القرن الثامن عشر للميلاد، بأنها "الممارسة بكل سيادة وشرعية، في بعض الاحيان، للسلطة على شعب وعلى أرض محددين" [3] فان مثل هذا التعريف قد بدأ يفقد ومنذ بروز العولمة في الثمانينات من القرن ومن الألفية الماضية الكثير من معناه. والسبب في ذلك أن مثل هذه السلطة السياسية بالدرجة الأولى [4] قبل أن تكون دينية أو أخلاقية، والهادفة إلى احتكار العنف ورادته عن طريق القوة والعنف، (Le monopole et l’administration de violence par la

---

[1]– جلال أمين: العولمة والدولة : بحوث ومناقشات الندوة الفكرة التى يظمنها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988، ص20 .

[2]– حنفي حسن: ثورة المعلومات : المجلة الدولية للعلوم السياسية، القاهرة، يناير، 1996، ص 40

[3] –René Lefèbre : L’état dans la monde moderne, col, Paris, 1990, P 50

[4] – Burdeau : Létat, Paris, seuil, 1978, introduction, P 110

(violence وصولا إلى الحصول طواعية أو كرها... على سلوك من مجموعة أفراد، يتماشى ومصلحتهم جميعا... إن مثل هذه السلطة السياسية قد بدأت تتوارى تدريجيا أمام الزحف الكاسح لتلك العولمة.

إن البشرية لم تعرف طيلة تاريخها الطويل مثل هذه التحولات التكنولوجية والاعلامية والاقتصادية والسياسية والثقافية مثل التحولات التي تعرفها اليوم والتي أدت إلى الترابط العملي بين مختلف أجزائها ومختلف مناشطها، إذ هذا الارتباط المتعدد الميادين والنتائج هو الذي حول العولمة بالتالي إلى أكبر ظاهرة في تاريخ البشرية.

1- تعريف العولمة:

استنادا إلى هذه الحقيقة الجديدة التي تمثلها العولمة اليوم فإننا نقول أنها أكبر بالتالي من مجرد انتقال للشيء، من المحدود الوطني إلى اللامحدود العالمي، بل إنها أكبر من ذلك وأخطر. فالعولمة، كما يعرفها البعض من الباحثين ليست فقط " التداخل الواضح وغير المسبوق لقضايا الاقتصاد والمال والتكنولوجيا والسياسة والاعلام"[1] بل إنها كذلك وفي الوقت ذاته"نزعة متصاعدة وهادفة إلى توحيد أنماط التفكير والأذواق والحساسيات والسلوك وهذا دونما اعتبار يذكر للانتماءات الثقافية وللحدود السياسية الوطنية ودونما حاجة كذلك وبالتالي إلى تدخل الدولة لتحقيق ذلك"[2].

فالعولمة هي محاولة لتشكيل رؤية جديدة ومختلفة نحو العالم والنظر له ككل واحد، وجعله إطارا ممكنا للتفكير مع وجود آليات وتقنيات لها قدرة التعامل مع حقائقه ومعطياته وعناصره وتعتبر فلسفة تركيبية واختزالية واندماجية تحاول أن تجعل من العالم المتنوع والمتعدد والمتناقض في هوياته وثقافاته وقومياته ولغاته دياناته وجغرافياته، إطار في قالب واحد[3].

إن العولمة هي التوظيف العقائدي الصامت، الذي يخفي معه إيديولوجيته لثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات وتقنيات الاعلام المتطورة التي ربطت الكون بشبكات جعلت منه أشبه بقرية صغيرة أو حسب

---

[1] – Hammana Boukari : Mondialisation et originalité culturelle, XXXéme Congrès de l'ASPLF, lib, J. Vrin, Paris, 2006, P 100

[2] – الميلاد زكي : المسألة الحضارية "كيف نبتكر مستقبلنا فى عالم متغير"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1999، ص 25

[3] – روبرت ليكن : وباء الفساد الكونى، ترجمة تمرت العالم، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، 1997 .

* التكنولوجيا « Technologie » : هي علم التقنيات و هو يدرس الطرق التقنية من جهة ماهي مشتملة على مبادئ عامة أو من جهة ماهي متناسبة مع تطور الحضارة أو هي جانب الثقافة المتضمن المعرفة و الادوات التي يؤثر بها الانسان في العالم الخارجي، و يسيطر على المادة لتحقيق النتائج العملية المرغوب فيها و تعتبر المعرفة العلمية التي تطبق على المشاكل العلمية المتصلة بتقدم السلع و الخدمات جانبا من التكنولوجيا الحديثة و أهم المسائل التي يبحث فيها هذا العلم

1. المسألة الأولى : وصف الفنون الموجودة في زمن معين و في مجتمع معين وصفا تحليليا دقيقا

2. المسألة الثانية : هي البحث في شروط كل مجموعة من القواعد الفنية و قوانينها لمعرفة أسباب انتاجيتها العملية

3. المسألة الثالثة : هي دراسة طرق التقنية في أحد المجتمعات الانسانية أو في المجتمع الانساني العام و تسمى دراسة هذه المسائل الثلاثة بعلم التكنولوجيا العام .

وصف عالم الاجتماع الكندي أستاذ الاعلاميات في جامعة تورنتو: "مارشال مارك لوهان"، بالقرية الكونية، الذي أطلقه منذ وقت مبكر في كتابه الذي صدر في نهايته الستينات، "حرب وسلام في القرية الكونية " وبالتالي تعتبر ظاهرة سياسية تبغي تحويل العالم كله إلى قرية واحدة بما توحي به كلمة القرية من عرقات قرابة وجوار ومحدودية في المكان والزمان، فالعولمة اذن هي ميل الى "توحيد الوعي وتوحيد القيم وتوحيد طرائق السلوك وأنماط الانتاج والاستهلاك أي إلى قيام مجتمع انساني واحد" [1] وإسقاط السيادة الوطنية للدول القومية.

كما أن العولمة هي أيضا استعمال المنظمات الدولية كأداة لفرض العقوبات على الدول التي تشق عصا الطاعة على نظام العالم الجديد ذي القطب الواحد وفرض الحصار الجوي والبحري عليها، والتهديد بالغزو العسكري مثل حصار العراق وليبيا وتهديد السودان وإيران وهو ما يخطط للوطن العربي أيضا تفكيرا عن قومية الستينات ومناهضة للاستعمار والصهيونية، وتكوين كتلة العالم الثالث في عصر الاستقطاب[2].

2- جذور العولمة:

فالعولمة إذن ليست ذات اتجاه واحد التجميع والتوحيد والضم نحو المركز بل ذات اتجاهين، وحدة المركز وتشرذم الأطراف، ومناهضة لأي تجمع إقليمي آخر، فالوطن العربي في عصر العولمة لا يكون كلا واحدا أو تجمعا مستقلا بل مجموعة من الطوائف والنحل والملل والأعراف، وإذا كان البعض من الباحثين يرجعون ظاهرة العولمة إلى التحولات التي شهدها العالم منذ بداية الثمانينات من القرن الماضي وهي التحولات التي تمثلت، في سقوط المعسكر الاشتراكي وبعده حائط برلين، وفي إنهيار نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا.

فإننا نعتقد أن جذور العولمة أقدم من ذلك بكثير. فالبعض من الباحثين الآخرين يرجعون العولمة إلى الإسكندر المقدوني أو الأكبر (Alexandre le grand 323 -356 ق.م) الذي استهدف، ومن خلال الامبراطورية العالمية التي عمل على إقامتها، إلغاء الحدود السياسية بين الدول وفرض نموذج فكري وثقافي وسياسي موحد وعالمي و إستمر الرومان فيما بدأه اليونان،واستولت روما على العالم القديم، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الجنوب والشمال، والشرق والغرب باسم " Pax Romana " أحد مصادر " Pax Americana "

لم يكن الصراع من أجل العولمة بين الشرق والغرب وحده بل أيضا بين الشمال والجنوب، بين روما وقرطاجة، بين "أغسطين" و"دوناتوس"، بين أوروبا وإفريقيا على زعامة العالم الرومانى ثم العالم الروماني المسيحي، وعاد الصراع بين الشرق والغرب والشمال والجنوب معا أثناء الغزو الصليبي في العصور الوسطى عندما اجتمعت الدول "الأوروبية المسيحية " تحت دعوى إنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين من أجل

---

[1]- غليون برهان : ثقافة العولمة و عولمة الثقافة، دار الفكر بدمشق، ط2، 2002، ص 21

[2]- حنفي حسن : حصار الزمن، مركز الكتاب للنشر، مصر، ط1، 2004، ص 500

السيطرة على الشرق، بعد أن عزت السيطرة على المغرب وبقي الأندلس صامدا بمدنه المستنيرة، إشبيلية وقرطبة وغرناطة، فلم ينجح الغزو الصليبي في تركيز العولمة الغربية في أحد أشكالها القديمة[1].

ويرجع البعض الآخر العولمة إلى "فاسكو دي قاما" Vasco de Gama وبداية التحولات النهضوية الثقافية والتجارية والدينية الأوروبية، والتي استهدفت أوروبا من خلالها، فرض فكرها وثقافتها و اقتصادها بل وديانتها على العالم بأكمله[2] بذلك نفهم لماذا كان الغرب منذ (الاسكندر الأكبر) وإلى اليوم، الميدان الأول للعولمة في مختلف أشكالها التجارية والرأسمالية والليبيرالية، والأداة الأولى كذلك لتجسيدها من خلال الثورات الدينية والسياسية والتقنية والعلمية والثقافية المتتالية التي ما لبثت آثارها أن غمرت كل بقاع العالم [3].

إن العولمة ليست فقط اقتصادا أو ثقافة، بل إنها و كما يؤكد ذلك الارتباط العضوي للعولمة الاقتصادية بالعولمة الثقافية كليهما معا [4]، فلا عولمة اقتصادية أو إنتاجية " Production " أو تكنولوجية بدون عولمة ثقافية ومعلوماتية و اتصالية، تماما كما أنه لا عولمة معلوماتية أو اتصالية بدون عولمة اقتصادية وتكنولوجية، ولأن من يجهل أو يتجاهل التاريخ ودروسه محكوم عليه بمعايشتها مرة أخرى، فإننا نقول أن العولمة لا تتجسد فقط في الاقتصاد أو في المال أو التجارة أو في التكنولوجيا أو في الثقافة بل فيهم جميعا. فالغرب ينشغل بالعولمة وهو الذي أنجزها، وهو الطرف الفاعل والمؤثر في حركتها يعيشها و يمارسها كواقع نظّم على أساسه إمكاناته و قدراته وآلياته ونظمه، وبالتالي فهو يدرك ماهية العولمة وفلسفتها ومفاعيلها وعلائقها ومستقبلاتها، وتأثيرها على خياراته واتجاهاته و استراتيجياته.

أما نحن في العالم العربي والاسلامي فننشغل بالعولمة ولسنا طرفا فاعلا أو مؤثرا في حركتها واتجاهاتها وصيروراتها، بل لازلنا لم نحسم بعد قراءتنا لماهية العولمة وفلسفتها، فنحن منفعلون بها ولسنا فاعلين متأثرون بها وليس مؤثرين، محكومون بالخوف والحذر منها، لأننا لانعرف موقعنا فيها ولا مستقبلنا منها[5].

ويذهب "صادق جلال العظم" إلى أن العولمة هي " حقبة التحول الرأسمالي العميق للانسانية جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافىء [6]. أما السيد ياسين " فينظر إلى أننا " مازلنا في مرحلة فهم ظاهرة العولمة وإستكشاف القوانين الخفية التى تحكم مسيرتها، والتي تسهم في الوقت الراهن في تشكيلها، هي في الحقيقة ظاهرة غير مكتملة الملامح والقسمات،

---

[1]– حنفي حسن : قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986، ص 250

[2] – Hammana Boukhari : Mondialisation et Originalité culturelle, P 30

[3]– الشريعاتي علي : تاريخ الحضارة، ترجمة حسين نصيري، دار الأمير، بيروت، ط 1، 2006، ص 300

[4]– جدعان فهمي : الطريق الى المستقبل، أفكار قوية للأزمنة الغربية المنظورة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط 1، 1997، ص 25

[5]– ميلاد زكي : المسألة الحضارية، ص 32

[6]– صادق جلال : ماهي العولمة، مجلة الطريق، بيروت، السنة 56، العدد 4، 1997، ص 34

بل إننا نستطيع أن نقول أن العولمة عملية مستمرة تكشف كل يوم عن وجه جديد من وجوهها المتعددة [1] إن العولمة هي الظاهرة التاريخية لنهاية القرن العشرين أو لبداية القرن الحادي والعشرين، مثلما كانت القومية في الاقتصاد وفي السياسة وفي الثقافة هي الظاهرة التاريخية لنهاية القرن التاسع عشر أو لبداية القرن العشرين[2] كما ينظر إليها "جورج طرابيشي"، أما في نظر "الجابري" فهي ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي بل هي أيضا وبالدرجة الاولى، إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم [3] نستنتج مما سبق أن هناك وصفا وتشخيصا لظاهرة أنجزها طرف آخر،ولم تكتمل صورتها بعد في العالم العربي الذي يعيش بعض تداعياتها[4]، بحيث هناك فاصل تاريخي وزمني وحضاري شديد العمق بين عالمنا وعالم تلك الدول المتقدمة، فالغرب يتنج المفاهيم والعرب يشرحونها، الغرب يبدع والعرب ينقلون[5]

3- الدولة في زمن العولمة:

فالعولمة قدر حتمي لا مفر منه، قانون تاريخي ينطبق على الجميع، وهناك من يرى أن العولمة غطاء نظري جديد لأحد أشكال الهيمنة القديمة، وإنها ليست قدرا ولا نهاية التاريخ، بل هي مرحلة تطول أو تقتصر حتى ينشأ القطب الثاني من مجموع دول أسيوية وإفريقية وأمريكا اللاتينية وفي قلبه العالم العربي الاسلامي الذي يقع على امتداد آسيا وإفريقيا لذلك يتم التركيز عليه بالحصار في العراق وليبيا، والتهديد لإيران والسودان والاحتلال في فلسطين والتهميش لمصر. فالعولمة في العالم العربي ليست تعبيرا عن الشكل السياسي للمجتمع بل إنها تعبير كذلك، وقبل كل الشيء عن شكله الثقافي [6] المتميز فإننا تفهم بالتالي ذلك التخبط الشامل الذي نعيشه، وعلى كل المستويات دول وشعوب هذا العالم ... نتيجة للزحف المتصاعد لهذه العولمة ...وعلى قيمها ...وقناعاتها ...ونتيجة لاختلاف تلك القيم والقناعات عن قيم وقناعات صناع هذه العولمة اليوم ...وهو، و كما نعلم الغرب الأوروبي جغرافيا ...أو إيديولوجيا.

إن هذا التخبط الذي يعيشه العالم العربي، يتجلى وفي كل أبعاده، من بين ما يتجلى في أحاديث هذا العالم وتلك الدول، وهي الأحاديث المكررة لنفسها عن أزمة الهوية " la crise de l'identité nationale" بل وعن كارثة الهوية الوطنية [7] "la catastrophe de l'identité nationale" ومن هنا الهوس الذي يجتاح اليوم العالم العربي خاصة، حول هويته الوطنية ... وحول وسائل حمايتها .

---

[1]- السيد ياسين : في مفهوم العولمة، المستقبل العربي، بيروت، العدد 228، 1998، ص 50

[2]- جورج طرابيشي : مجلة الحياة، لندن، العدد 49، 1997، ص 43

[3]- حسن حنفي : ما العولمة ؟، دار الفكر المعاصر، مصر، ط1، 1999، ص 10

[4]- المرجع نفسه، ص 14

[5]- المرجع السابق : ص 14

[6]- البخاري حمانة : التراث السياسي الاسلامي و الديمقراطية، مجلة الحضارة الاسلامية، معهد الحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2004، ص 69

[7] -CF.Bourdieu (p) et passeron (J.C) : la reproduction , paris ,ed de minut .1989. P20

ومن هنا كذلك تلك الحروب الوهمية التي يقودها هذا العالم ضد الغزو الثقافي الغربي [1] وضد " حضارته وثقافته الفاسدتين والمفسدتين " وهذه الحضارة التي تذكر بأنه لا يتردد لحظة في الأخذ، وفي الوقت ذاته، بكل منتجاتها ؟ وهذا إبتداءا من الطائرة إلى الحاسوب ...ومن الألبسة ... إلى مختلف أدوات الزّينة والترفيه فالعلاقة بين الطرفين (الهوية الثقافية والعولمة) ليست مجرد موضوع لبحث علمي، بل هي أزمة وجودية تاريخية، تعبر عن صراع أكثر مما يعبر عن مجرد تضايق أو حوار وقد تعبر عن إحساس مرضي مركب النقص في مقابل مركب العظمة،المقهور والقاهر،المستعمر والمستعمر فهي علاقة غير متكافئة بين خصمين، فإننا أول من يتفهم مثل ذلك التناقض وذلك التخبط العربيين، فإننا أول ما يلاحظ كذلك أن ليس كله وليد هذه العولمة وكما يزعمون، بل إنه كذلك وليد جهل وتخلف وتسلط... وعشائرية... وقبلية الأنظمة السياسية العربية ... أولا... وشعوبها بعد ذلك.

لذلك تحولت أحاديثها عن التمسك بالهوية الوطنية مجرد شعارات ضالة ومضلّلة، لا يستهدف منها العديد من الحكام العرب سوى تغطية ذلك الفساد والظلم والجهل والفقر والتخلف الذين أغرقوا شعوبهم فيه. وأية ذلك أن الهوية الوطنية، خاصة في بعدها السياسي والاجتماعي والثقافي، وليس النفسي فقط، إذا كانت تعني من بين ما تعني الشعور المشترك لمجموعة أفراد ما... بانتمائهم الجماعي [2] فان مثل ذلك الانتماء لا يمكن أن يتجسد على أرض الواقع، فضلا عن أن يستمر، إلا من خلال مجتمع يشعر فيه كل فرد من أفراده بالحرية وبالعدل... ويحرص القائمون على أموره، السياسية خاصة،على تقدمه ورفاهيته، وليس على نهبه واستغلاله وإذلاله، كما هو الحال اليوم بالنسبة للعديد من تلك النظم العربية وإن كنا نشهد تحولا نوعيا حول هذه المسألة في الوقت الراهن يمكن الهوية الوطنية، أن تتحول لدى كل فرد من أفراد المجتمع، إلى حافز للنظر والعمل لصالح المجموع وإلى مرجعية كذلك بالنسبة لهذا الأخير(أي المجموع)

لتشكل بالتالي ما يسمى بالهوية الجماعية (l'identité collective) المعبرة عن إرادة وعمل الكل من أجل التقدم والتطور والاستمرار.

كما يمكن أن تتحول الأزمات الداخلية والخارجية على حد سوءا، التي قد يتعرض لها المجتمع إلى حوافز للمزيد من الجهد الابداعي الثقافي والصناعي والسياسي والاجتماعي... الهادف لتجاوزها وللعودة من جديد للانتظام في مسيرة التاريخ [3] فان مصير الدولة في ظل العولمة هو الضعف والزوال والاضمحلال وشرذمة المجتمعات الراهنة خصوصا دول العالم الثالث نتيجة لما يحفل به هذا العالم من صراعات وتناقضات كالصراعات القبلية والأثنية والطائفية والدينية والجهل والبطالة وغيرها.. فأمريكا اللاتينية مازالت ترزخ تحت المخدرات والجريمة والنظم التسلطية، وآسيا مشغولة بنهضتها الاقتصادية لذلك تم التركز على الوطن العربي لأنه مازال تراثه حيا يأبى الاستعمار والتبعية. فالعولمة تخترق أربعة جوانب رئيسية للدولة ذات

---

[1]– الجندي أنور : الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب، مطبعة الرسالة، القاهرة، (ب ث)، ص131 وما بعدها

[2]– Foulquie (P) : Dictionnaire de la langue philosophique, Paris, P.U.F, 1978 , P 400

[3]– سمير أمين : ندوة العرب والنظام العالمي الجديد في الكتاب الصادر عن الأسبوع الثقافي الثالث لقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة دمشق، 1997 ص 34

السيادة هي الاحتكار– السلطة– التشريع والحدود الجغرافية. ومن هنا يتقلّص دور الحكومات في إصدار التشريعات داخل الدولة وممارسة سلطانها، ودليل ذلك ما جاء في خطاب الرئيس الفرنسي السابق، جان شيراك في 14 يوليوز 2004: " إنّ العولمة بحاجة إلى ضبط لأنّها تنتج شروخا اجتماعية كبيرة، وهي إن كانت عامل تقدّم، فهي تثير أيضا مخاطر جديّة ينبغي التفكير فيها جيدا ومن هذه المخاطر ثلاثة:

- أولا؛ أنها تزيد ظاهرة الإقصاء الإجتماعي.
- ثانيا؛ أنها تنمي الجريمة العالمية.
- ثالث؛ أنها تهدّد أنظمتنا الإجتماعية."

ومن هنا يقرر "سمير أمين" أن هذا النوع من العولمة لا يمكن أن ينتج أي نوع من السلام أو القبول الاجتماعي، فهو نظام قائم على الانفجار المستمر انفجارات وانتفاضات مستمرة، فسياسة إدارة الأزمات تتم إما من خلال التدخل العسكري المباشر، كما حدث في حرب الخليج الثانية أو من خلال تحريك القوة التي تؤدي الى التخلص من نظم الدولة باسم الأثنية و الدين و اللامركزية لدرجة أن الهدف هو إدارة الأزمة من خلال ضرب النظم الحكومية، نظم الدولة و كسرها نهائيا و تفتيت المجتمعات لا نهاية لها على أسس أثينية و دينية وغيرها و سياسة إدارة الأزمة لها جانبان: اقتصادي يتمثل في أسعار الفائدة والديون الخارجية وجانب سياسي يتمثل في الاستغلال الواعي للقوى التي تؤدي إلى تفتيت نظم الدولة[36] و دليل ذلك أن الدولة العربية القطرية فهي لا تملك إلا أن تختار بين بديلين : أولهما أن تتفكك إلى كتل أو ذرات صغيرة لا قيمة لأي منها، أي أن تتفكك إلى مجموعة أثنية و قبلية وظائفية ودينية...إلخ

وذلك لتعذر إمكان صمود هذا الكيان أكثر من ذلك أمام ضغط العولمة الوارد من المركز نحو الأطراف و إنما أن تعيد النظر في ما هيتها وكيانها، بحيث ترتقي بنفسها إلى شكل من أشكال الكيان القومي الذي يرتقي بها إلى نوع من (الكلية) التي يمكنها الصمود في مواجهة آليات العولمة التي هي بطبيعتها آليات قادرة على تفكيك كل ما يواجهها من مقاومة هنا و هناك[1].

وبالتالي فإن تفكك الدولة القطرية سيمكن آليات العولمة من بلوغ مداها السياسي والاقتصادي في المجال العربي الكبير [2] وهذا التناقض راجع أولا التناقض بينها وبين آليات العولمة التي تميل إلى دمج الأطراف وتكييفها مع مصالحها حتى ولو أدى ذلك إلى تفتيت الأطراف وتفكيكها والدولة العربية ليست قادرة على الصمود في هذه المواجهة.

أما التناقض الثاني فهو بينها وبين الثقافة (بوصفها مجموعة من الرموز والعادات والتقاليد) التي أنتجتها الأمة العربية على مدى قرنين من الزمن، وانطلاقا من هذا نستطيع القول إنّ الثقافة العربية قد انتجت مجموعة هائلة ومتنوعة من الأفكار والأطر المنطقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية القادرة على المشاركة في تفسير المتناقضات الأساسية التي تسيطر على حياة الأمة والتالي تجديد الثقافة العربية والتعبير عن ظروف العصر من احتلال وقهر وتجزئة وظلم اجتماعي وتخلف وتغريب وكسر حدة الانبهار بالغرب

---

[1]– أنظر مقال الثقافة والسلطة في ظل العولمة ليوسف سلامة,منتدى عبد الحميد شومان الثقافي عمان الاردن2000.

[2]– المقال نفسه .

ومقاومة قوة جدبه وذلك برده إلى حدوده الطبيعية والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية وبالتالي إضفاء الفكرة الاسلامية على العالم بأسره وخلق عالم عربي موحد في ظل الحرية السياسية والاقتصادية للفرد[1].

ولما كان الغرب الحديث الآن هو المركز، فهو الذي يرفض مساره على باقي الثقافات، ويجعل العالم كله يمتثل بمساره هو نهاية قرن وبداية آخر، فتضع كل الشعوب نفسها في مساره ويزداد الاغتراب الثقافي والحضاري عند كل الشعوب باستثناء ثقافة المركز وفي خضم الاعجاب بالحاضر يتم نسيان الماضي، وفي رحمة الوعي السياسي يتم طي الوعي التاريخي، وفي تدوين التاريخ الحديث، وقعت مؤامرة صمت على الجذور لصالح الثمار، ربما لنزعة نفعية مباشرة أو بنّية إخراج الشعوب التاريخية القديمة من التاريخ، وحصرها في متاحف تاريخ الحضارات القديمة كي يتسع المجال للشعوب اللاتاريخية الأوروبية الحديثة، التي ابتلعت عصورها الحديثة في القرون الخمسة الاخيرة كل تاريخ البشر السابق، اعتزازا بالجديد على حساب القديم.

إن العولمة التي عبر عنها الغرب، ترتكز على الانتفاع المادي والجشع الاقتصادي، واحتكار الثروات ورفع القيود عن الاسواق والبضائع وامتصاص الأموال وهذه الأمور هي من أكثر العوامل سببا وتحريضا للنزاع والصدام.

في ظل هذه القرية الكونية الواحدة، تنتشر سلطة العولمة وتتخلل كل ذرة من ذرات القرية عن طريق مئات الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء الأرضي.

ولأن إيجابيات العولمة مثل سلبياتها[2] كثيرة لكل الشعوب المتقدمة والمتخلفة على حد سواء، فان المهم خاصة بالنسبة للشعوب العربية الاسلامية ليس الانبهار أمامها، أو الذوبان السلبي في تيارها الكاسح بل إن الأهم من كل ذلك هو العمل على التفاعل الايجابي معها و مع ايجابياتها و سلبياتها تلك على حد سواء وذلك يعني:

أ)- ضرورة تسليم الدولة العربية الاسلامية بان العولمة واقع يفرض اليوم نفسه عليها بالرغم من كل ردود الفعل المتشنجة البعض منها.

ب)- إن العولمة ليست صندوقا مغلقا لا تملك مفتاحه سوي الدول المتقدمة، بل إنها، وكما أكدت ذلك التجربة اليابانية وغيرها، مجال فسيح ومفتوح أمام كل الدول والشعوب التي تريد، قولا وفعلا، التقدم واللحاق بتلك الدول المشكلة لركبه المتحرك اليوم.

ج)- إن ذلك لا يعنى فقط التكيف الايجابي مع الثورة التكنولوجية والمعلوماتية والاعلامية والاقتصادية والتجارية... الخ[3]، بل إنه يعني كذلك وقبل كل شيء إعادة النظر في الأسس السياسية التي ظلت تستند إليها الدولة العربية الاسلامية وهي الأسس الفاقدة في العديد منها لأبسط أشكال الديمقراطية والقانونية.

---

[1]- حنفي حسن : ثورة المعلومات، المجلة الدولية للعلوم السياسية، القاهرة، يناير 1997

[2]- غليون برهان : العرب و تحديات القرن الواجد و العشرين، منتدى عبد الحميد شومان الثقافي، عمان، الأردن، 1998، ص 31.

[3]- المرجع نفسه، ص 32 .

د)- إن قيام دولة القانون بكل ما تعنيه هذه الدولة يعد الشرط الأول لإعادة التفاف الجماهير حولها... وحول مشاريعها [1] التحديثية الحقيقية... إلى تشكل الطريق نحو اندماجها في هذه العولمة ضمن خصوصياتها التاريخية والحضارية والثقافية وبعيدا عن أي انبهار أو ذوبان. إن الغرب ليس هو نهاية التقدم ولا نهاية الحداثة والحضارة، ولا حتى نهاية التاريخ، كما ظن "فوكوياما " وان من يملك التقدم اليوم ليس بالضرورة سيملكه إلى الأبد، وإن الامم التي خرجت من الحضارة لن تعود إليها أبدا فالتاريخ يمكن أن يتغير في أية لحظة، وهو الأعرف بقوانينه وسننه والمستقبل ليس مفتوحا على الغرب فحسب، بل هو مفتوح على كل الثقافات والأمم والحضارات، وبحاجة إلى اكتشاف جديد في زمن زحف العولمة – إن المهم بالتالي ليس الاستمرار في مثل هذه الصراعات اللامجدية بل إن الأمم من كل ذلك هو كيفية التفاعل الايجابي مع تياراتها الزاحفة خاصة على الدول النامية. إن مثل ذلك التفاعل لا يتصور، فيما نعتقد، إلا من خلال عولمة أكثر إنسانية، عولمة تسهم في تطوير الانسانية في كل أبعادها وخصوصياتها، دون التخلي أو التضحية في نفس الوقت بأجزائها، الأكثر ضعفا والأكثر عددا عولمة تحوّل هذه الأخيرة من تابع إلى شريك.

إن العولمة في شكلها المتوحش، هي مجال مفتوح لسيطرة النموذج الرأسمالي على العالم بعد انتهاء الشيوعية، فتذوب في طي الحدود الجغرافية، ما دامت الشركات المتعددة الجنسيات، تخترق حدود الدول وتتضعضع الدول وخاصة منها الضعيفة وتبتلع عن طريق التحرك تحت مضلة الشرعية الدولية للتدخل المباشر في شؤونها، وتطمس الهوية، وتندثر الخصوصيات الثقافية، وكل هذا ينذر بنهاية الوازع الديني والاخلاقي، ومن ثمة نهاية ما في الانسان من الانسانية. وذلك ما أكده "صمويل هنتيغتون" " لقد شهدت التسعينات انفجار أزمة هوية كونية أينما تجد الناس وتراهم يتساءلون من نحن ؟ لمن ننتمي؟ من هو الأخر؟ وهي أسئلة مركزية ليست فقط بالنسبة للشعوب التي تحاول أن تصوغ دولا قومية جديرة كما في يوغسلافيا السابقة، وإنما على المستوى العام كذلك أصبحت قضايا الهوية تأخذ شكلا حادا، وخاصة في البلاد ذات الصدع الذي توجد بها جماعات كبيرة من البشر ينتمون إلى حضارات مختلفة، وفي تماشيهم مع أزمة الهوية فان ما يهم الناس هو الدم والعقيدة والايمان والأسرة، الناس عادة يهرعون نحو أولئك من نفس السلف والدين واللغة والمؤسسات ويتباعدون عن من هم عكس ذلك" [2] وبالتالي فان المشترك الثقافي ينطلق من اللغة والفكر والقيم وكلها تشكل نسيجا واحدا متكاملا، و هذا راجع الى العولمة التي هي نهاية عصر الاستقطاب وبداية العالم ذي القطب الواحد تحت شعار العالم قرية واحدة، اقتصاديات السوق، مجموعة الثمانية، الشركات المتعددة الجنسيات، ثورة المعلومات، ثورة التكنولوجيا، نهاية الايديولوجيا، نهاية الدولة الوطنية.

خاتمة:

إن دور الدولة في زمن العولمة قد تقلّص وتحولت بالتالي إلى جهاز لا يملك؛ ومن لا يملك لا يراقب ولا يوجّه. " فكل الدلائل التي رافقت ظهور العولمة بصيغتها الجديدة تشير إلى تراجع مفهوم الدولة وتدهور

---

1 -Hammana Boukhari : Mondialisation et originalité culturelle, XXX^{éme} congrès de L'ASPLF, lib, J.Vrin, Paris, 2006, P 200

2- هنتيغتون : صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صالح قنصوة، دار السطور، القاهرة، ط1، 1998، ص204

مكانتها على الصعيدين المحلي والعالمي، وهذه الحقيقة لم تقتصر على دول بعينها وإنما طاولت جميع الدول في الشرق والغرب، في الشمال والجنوب وإن بنسب متفاوتة ومتباينة، تبعا لدرجة تطور كل الدولة وانخراطها في النظام العالمي* وبالتالي فهي آيلة الى الزوال في خضم التيار الجارف للواقع الاقتصادي العولمي الجديد، الذي آخذ يفرض نفسه على العالم وعلى دوله من حيث هي أجهزة ووظائف و سلطات وحكم وتحكم وضوابط وتنفيذ ". وأخيرا يقول " فؤاد زكريا " في زمن العولمة علينا أن نفعّل دور العقل والتفكير، بحيث نأخذ المفيد الذي يعزّز من بناء مجتمعنا ونرفض المسيء الذي يدمّر قيمنا، ويجب أن لا يكون العقل مشدودا إلى الخلف، أو جامدا في مكانه وزمانه، بل يجب أن يكون مستنيرا قادرا على التطلّع بأمل إلى مستقبل واعد وأفضل، لأنّ التحدّي الذي نواجهه ليس اختيار بين الرجوع إلى الأصل أو مسايرة العصر، وإنّما إلى إثبات إستقلالنا عن الآخرين وابتداع حلول من صنعنا نحن، نعمل لتاريخنا وواقعنا وعندما يكفل المكان الذي يليق بنا فالصدّ والانعزال قد يجديان في الحروب. أما في الساحة الثقافية فلا يفيدان وهما أقصر الطرق إلى الهزيمة والتسليم وبذلك فالدول التي تحاول صدّ الأخطار الثقافية الخارجية عن طريق سدّ قوانين المنع والحظر والرقابة هي أكثر تعرّضا لهذه الأخطار، أما المجتمعات التي تصنع ثقافتها الخاصة المستثيرة كي تواجه بها الثقافات الوافدة فهي وحدها التي تستطيع أن تصمد وتنتصر وبهذا ينتهي القلق الثقافي الذي نعانيه[1].

*** الهوامش و المراجع:**

1- البخاري حمانة: التراث السياسي الاسلامي والديمقراطية، مجلة الحضارة الاسلامية، معهد الحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2004.

2- جدعان فهمي: الطريق الى المستقبل، أفكار قوية للأزمنة الغربية المنظورة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط 1، 1997.

3- جلال أمين: العولمة والدولة : بحوث ومناقشات الندوة الفكرة التي يظمنها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.

4- الجندي أنور: الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب، مطبعة الرسالة، القاهرة، (ب. ت).

5- جورج طرابيشي: مجلة الحياة، لندن، العدد 49، 1997.

6- حسن حنفي: ما العولمة ؟، دار الفكر المعاصر، مصر، ط1، 1999.

7- حنفي حسن: ثورة المعلومات : المجلة الدولية للعلوم السياسية، القاهرة، يناير، 1996.

8- حنفي حسن: حصار الزمن، مركز الكتاب للنشر، مصر، ط1، 2004.

9- حنفي حسن: قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986.

10- روبرت ليكن: وباء الفساد الكونى، ترجمة تمرت العالم، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، 1997 .

11- سمير أمين: ندوة العرب والنظام العالمي الجديد في الكتاب الصادر عن الأسبوع الثقافي الثالث لقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة دمشق، 1997.

12- السيد ياسين: في مفهوم العولمة، المستقبل العربي، بيروت، العدد 228، 1998.

13- الشريعاتي علي: تاريخ الحضارة، ترجمة حسين نصيري، دار الأمير، بيروت، ط 1، 2006.

14- صادق جلال: ما هي العولمة، مجلة الطريق، بيروت، السنة 56، العدد 4، 1997.

15- غليون برهان : ثقافة العولمة و عولمة الثقافة، دار الفكر بدمشق، ط2، 2002.

[1]- فؤاد زكريا، الغرب ذلك المتآمر الأزلي، مجلة العربي، حريزان، الكويت، العدد 122، سنة 1993، ص 10.

16- غليون برهان: العرب وتحديات القرن الواجد والعشرين، منتدى عبد الحميد شومان الثقافي، عمان، الأردن، 1998.
17- فؤاد زكريا، الغرب ذلك المتآمر الأزلي، مجلة العربي، حريزان، الكويت، العدد 122، سنة 1993.
18- الميلاد زكي: المسألة الحضارية "كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1999.
19- هنتيغتون: صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صالح قنصوة، دار السطور، القاهرة، ط1، 1998.
20- يوسف سلامة، مقال الثقافة والسلطة في ظل العولمة.
21- Burdeau : L'état, Paris, seuil, 1978, introduction.
22- Foulquie (P) : Dictionnaire de la langue philosophique, Paris, P.U.F, 1978.
23- Hammana Boukari : Mondialisation et originalité culturelle, XXXème Congrès de l'ASPLF, lib, J. Vrin, Paris, 2006.
24- René Le fèbre : L'état dans le monde moderne, col, Paris, 1990.